معركة الجرف التاريخية الكبرى 22-1955/09/25

علجية مقيدش
جامعة زيان عاشور الجلفة الجزائر (الجزائر)

الملخص :

مع ظهور بوادر الحرب العالمية الأولى ، فكرت فرنسا في تطبيق الخدمة العسكرية الإجبارية على الجزائريين منذ عام 1907، حتى صدر قرار فرض التجنيد الإجباري في 03 فبراير 1912 . وتضمن ثلاثين مادة ، منها تأدية الجزائريين الخدمة لمدة ثلاث سنوات دون حقوق سياسية ومدنية وأغرت الشباب ، بوعود كاذبة ومغرية. وجندت فرنسا 177000 فرد ، عبر عدة جبهات ، وهدفت فرنسا من التجنيد عدة أهداف إستراتيجية واقتصادية .وخلال التجنيد عاني الجزائريون من الأمراض والغربة والتمييز. وتباينت ردود فعل الجزائريين من سياسة التجنيد بين الردود السياسية بتشكيل الوفود و تقديم العرائض مثل عريضة جماعة النخبة الجزائرية تحت قيادة لجنة الدفاع عن المصالح المسلمين وعريضة سكان مدينة الخروب (قسنطينة) للحكومة الفرنسية في ماي1912 وإلصاق المناشير الحائطية بطريقة سرية مثلما ماقام به عمر راسم ، ومراسلة "عمر بن قدور الجزائري" الصحف الأجنبية مثل "المشير" بتاريخ 10سبتمبر1911،التي وصف فيها اجتماع الجزائر العاصمة والذي خطب فيه الشيخ عبد الحليم بن سماية ، إضافة لإستخدم الأدب الشعبي الساخر من فرنسا ، وتنظيم احتجاجات بمدن ندرومة، البرواقية و دلّس . وكذا تنظيم مظاهرات بمدن بوغرّة (روفيقو سابقا) عين التوتة، وإرسال الشكاوى مثلما قدمه سكان بني ميزاب شكاوى في 23 فيفري 1912 . وقد سارع الشباب الجزائري إلى الاختفاء مثلما ما حدث في مدن باتنة و ندرومة ومدن ميزاب والتل والهجرة الخارجية استجابة للدعاية العثمانية أين غادر الشباب من مدن معسكر، سيدي بلعباس، سطيف و برج بوعريريج ،تلمسان نحو أوروبا وبلاد المغرب والمشرق العربيين .

كما انتفض الجزائريون أيضا في بني شقران ومعسكر(سبتمبر-اكتوبر1914) ، الأوراس(1916-1917) ، منطقة الهقار (1915-1919م) ، وواجهتها فرنسا باستصدار فتاوى إسلامية تحرم الهجرة من الجزائر ورفض تقديم جوازات السفر ورخص الحج . وفي نهاية الحرب قدمت إصلاحات في 24 فيفري 1919 .

Abstract

With the advent of World War I, France contemplated compulsory military service for Algerians since 1907, until the decision to impose compulsory conscription was issued on February 03, 1912 , And included thirty articles, including the performance of Algerians service for three years without political and civil rights and young people were tempted by false promises . France mobilized 177,000 troops across several fronts.

France recruited several strategic and economic targets. During the recruitment process, Algerians suffered from diseases, alienation and discrimination . The reactions of Algerians varied such as the petition of the elite group under the leadership of the Committee for the Defense of Muslim Interests and the petition of the inhabitants of the city of Khroub (Constantine) in May 1912 and the attachment of the wall pamphlets in a secret manner as established by Omar Rasem, "Omar Ben Kaddour Algerian" foreign newspapers such as "Mouchir" on 10 September 1911, in addition to the use of popular literature cynical from France, and the protests in the cities . As well as demonstrations in the towns of Bougara , Ain -Touta, and the submission of complaints as submitted by the residents of Mézab on 23 February 1912 ..

The Algerian youth quickly disappeared in the cities of Batna, Nedruma, Mizab, and the external migration in response to the Ottoman propaganda. The youth of the cities of Sidi Bel Abbes, Setif and Bordj Bou Arreridj moved to Europe, the Maghreb and the Levant

The Algerians also stood up at Beni Shakran 1914-Auras (1916-1917), the Haggar (1915-1919). France confronted them with Islamic fatwas forbidding emigration and refusing to provide passports for Hajj. At the end of the war reforms were made on 24 February 1919 .

I- تمهيد : كثيرة هي المواضيع التاريخية التي تهتم بتاريخ الثورة الجزائرية.ولعل أبرزها المعارك الكبرى التي أثرت في مسار تحرر الشعب الجزائري؛ فبعد اندلاع الثورة الجزائرية في فاتح نوفمبر1954،واشتداد الضغط الاستعماري عليها، توسعت العمليات العسكرية في معظم مناطق القطر الجزائري، من خلال معارك كبرى وكمائن ناجحة ، كبدت جيش الاحتلال خسائر في الأرواح والعتاد ؛ ففي ولاية الأوراس التاريخية ،خاض جيش التحرير الوطني معارك عديدة منها معركة الجرف الكبرى أواخر سبتمبر 1955، والتي جاءت بعد شهر واحد من هجومات الشمال القسنطيني [1] .

ومنه نتساءل عن خصائص منطقة الجرف طبيعيا واجتماعيا وأهميتها الجيواستراتيجية ورصيدها الثوري قبل هذه المعركة من جهة ، ومن جهة أخرى ماهي التطورات السياسية والعسكرية التي عرفتها المنطقة قبيل إندلاع المعركة؟ ، وماهي أهم استعدادات الجيش الفرنسي، وسير المواجهة بين الجيشين الجزائري والفرنسي؟ ، وماهي أهم نتائجها وأصدائها؟.

1-الموقع والتضاريس: يقع جبل الجرف المنحدر من سلسلة الجبل الأبيض، على بعد حوالي100كلم جنوب غرب مدينة تبسة، يحده من الشمال مدينة الشريعة وجبل قساس ، ومن الجنوب الشرقي مدينة نقرين ، ومن الشرق جبل العنق وجبل غيفوف.

تتميز منطقة الجرف بفجاج صخرية عميقة ، تتخللها كهوف ومغارات طبيعية عميقة [2]، وتعلو جبل الجرف صخرتان عظيمتان، وفي الأسفل يجري وادي هلال أو وادي الجرف ،الذي تتخذ منه المنطقة إسمها[3].

تبرز على ضفتي الوادي نتوءات تجاويف صخرية حصينة تشكل القلعة، وهذا ما حصن المجاهدين المتمركزين بها خلال معاركهم [4] .

2-الأهمية الإستراتيجية للمنطقة : تميزت منطقة الجرف بأهمية إستراتيجية وعسكرية ، مثلتها المظاهر التالية :

- منذ الحرب العالمية الأولى، لجأ إلى قلعة الجرف كل أبناء المنطقة الرافضين لأداء الخدمة العسكرية الإجبارية في الجيش الفرنسي[5] ،أو الفارين بأسلحتهم وذخائرهم ، أو المطاردين من الإدارة الاستعمارية الفرنسية ،وشرعوا في التدريبات العسكرية،في أماكن سرية لا يعرفها إلا عدد قليل من مناضلي الحركة الوطنية [6] .
- كانت القلعة مدرسة ثورية ،انطلق منها متطوعون للجهاد ضد الصهاينة في فلسطين خلال حرب 1948 والمشاركة في المقاومة التونسية ، ومنهم "الحاج صالح بوصفصاف، شريط لزهر، بوزنادة بلقاسم" ... وآخرون. وبعد عودة هؤلاء المجاهدين، تحولت القلعة إلى مستودع للأسلحة والذخيرة [7]،حيث نقل إليها "مصطفى بن بولعيد" أول شحنة مابين 1948-1949، استعدادا للثورة المسلحة.كما تم اقتناء دفعة ثانية من الأسلحة التي نقلت في اكياس من التمر، وبعض الحصائر [8] .
- كانت المنطقة محل زيارة القائد "بشير شيحاني" [9] ثلاث مرات ،الأولى في 1955 عندما قاد معركتين الأولى في"أم الكماكم"في23جويلية 1955 [10]،والثانية نهاية جويلية 1955 ، وهو متجه نحو وادي سوف، والثالثة عندما أدار معركة الجرف [11]التي هي موضوع الدراسة
- تحملت منطقة الأوراس[12] التاريخية عامة وإقليم تبسة خاصة ، عبء الحصار العسكري الفرنسي أيام الثورة التحريرية؛ إذ كان لها دورا محوريا نتيجة للإعتبارات التالية :

- قرب المنطقة من الحدود التونسية وانفتاحها جنوبا ناحية وادي سوف، يجعلها مجالا حيويا للثورة التحريرية داخليا وخارجيا، ومعبرا بين الداخل والخارج خاصة نحو التراب التونسي، حيث معظم القواعد الخلفية للثورة [13].
- تأثر مجاهدي الناحية الشرقية من الأوراس- مثل منطقة تبسة – بالنضال التحرري في تونس قبل إندلاع الثورة، فنفذوا عمليات عسكرية في شكل كمائن ضد العدو، مثلما حدث في17اكتوبر1954، حيث نصب كمين ضد كتيبة

للدرك الفرنسي كانت متجهة من مركز العقلة إلى دوار السطح بتبسة، أسفرت عن قتل عدد من الدركيين وغنم أسلحتهم.

- إهتمام السلطات الاستعمارية بمراقبة المنطقة ، ووضع نقاط التفتيش ،ونشر العملاء في الأسواق والأحياء الشعبية منذ سبتمبر1954.كما قامت بحملة تمشيط واسعة شملت جبال النمامشة أدت إلى اكتشاف دورية مجاهدين في13 سبتمبر 1954 كانت تستريح عند أحد المواطنين بدوار الفنجاية بين الماء الأبيض والشريعة ،وانتهت العملية باستشهاد مجموعة من المجاهدين، تابعة لخلية قائد الفرع فرحي ساعي المدعو "بابانا ساعي".
- مرور "مصطفى بن بولعيد" بمنطقة تبسة وهو متوجه إلى تونس من أجل جلب السلاح [14]؛ففي 31جانفي1955 وصل إلى جبال النمامشة ،وانتقل في 03 فيفري1955إلى المنطقة المسماة "كاف القط" قرب "دوار فركان" ،والتقى المسمى "بريك عمار بن الفرشيشي" وعرض عليه الانضمام للثورة[15].
- وصول "مصطفى بن بولعيد" في 04فيفري1955 ناحية بئر العاتر ومنها دخل مدينة الرديف التونسية والتقاؤه مع مجموعة من المجاهدين الجزائريين[16]، وحثهم على وجوب الاتصال بقيادة الأوراس عن طريق نائبه "بشير شيحاني"[17].

وبعد رجوع "عمر المستيري" من تونس، تم ضبط قوائم المجاهدين وتشكيل الأفواج، وتقسيم منطقة تبسة إلى نواحي هي:

- ناحية تبسة بقيادة "لزهر شريط".
- ناحية الشريعة بقيادة "عمر البوقصي" .
- ناحية بئر العاتر بقيادة "ساعي فرحي" **[18].**

3 -التطورات السياسية والعسكرية بالمنطقة قبيل إندلاع معركة الجرف: مع بداية أفريل 1955، تحول مقر قيادة المنطقة الأولى من القلعة بناحية خنشلة إلى ناحية تبسة بوادي هلال (وادي الجرف) ، حيث عقدت عدة اجتماعات بين أفريل - سبتمبر 1955 ، لتنظيم الناحية الشرقية، وإيجاد منفذ جغرافي نحو القواعد الخلفية بتونس.

عرفت المنطقة تطورات سياسية وعسكرية ، بعد انتقال قيادة الأوراس إليها حتى اندلاع معركة الجرف؛ ففي 05مارس1955 جرى اتصال مباشر بين قيادة الأوراس ومجاهدي ناحية الشرق في القلعة بحضور "بشير شيحاني وعجول عجول وعباس لغرور و ورتان وبشير(سيدي حني)"، إلى جانب ممثلي ناحية الشرق بقيادة "فرحي ساعي و الجيلالي بن عمر وعمر البوقصي"، وتم الاتفاق على تنظيم الناحية تحت قيادة جماعية ممثلة في السادة "بشير ورتان" بمساعدة "الجيلالي بن عمر،عمر البوقصي ، اعمر المستيري ومحمد بجاوي"، والاحتفاظ بالتقسيم المتفق عليه سابقا مع "اعمر المستيري" **[19]**.

4- الظروف الممهدة لاندلاع معركة الجرف : كان المجاهدون أثناء تنقلهم عبر جبال النمامشة ،يعقدون الاجتماعات بين الحين والآخر، مما تسبب في نشوب عدة معارك واشتباكات مع قوات العدو ومنها:

أولا:اجتماع منطقة وادي ميطر جنوب الجبل الأبيض أفريل 1955

أشرف على هذا الاجتماع "بشير شيحاني"، وتقرر فيه هيكلة المنطقة الجنوبية من الناحية الشرقية كما يلي:

- "حمة لخضر عمارة" مسؤولا عن وادي سوف.
- "الجيلالي بن عمر" مسؤولا عن الحدود الشرقية حتى جنوب تونس.
- "لزهر شريط مسؤولا" عن أم الكماكم [20] .
- إرسال دوريات عسكرية تنفذ كمائن ضد قوات العدو الفرنسي بالمنطقة، مثل كمين وادي بوتربار بالعقلة جوان 1955،وكمين كاف النسور بالشريعة في جويلية 1955وغيرهما.

- إرسال دورية مجاهدين بقيادة قنز محمود إلى ناحية سوق أهراس .
- إرسال دورية مجاهدين بقيادة "عبد الوهاب عيسى" محملة بالسلاح لشمال قسنطينة .
- إرسال دورية مجاهدين بقيادة "حمة لخضر و جدي مقداد "نحو وادي سوف ، لتنشيط الثورة هناك في 29جويلية1955، وفي يوم 31من نفس الشهر توجهت الدورية من الجبل الأبيض واشتبكت مع العدو في معركة هود شيكة في 14أوت1955.
- إرسال دورية مجاهدين بقيادة "محمد بوطمين وعبد القادر أكلي" إلى المنطقة الثالثة (القبائل الكبرى) لدعم الثور ة [21] .

ثانيا: معركة أم الكماكم 23جويلية1955: تعتبر أولى المعارك الكبرى بين القوات الفرنسية وقوات جيش التحرير الوطني بالمنطقة الأولى ، حيث شارك فيها حوالي ثلاثمائة مجاهد، وحضرها معظم قادة المنطقة ومنهم "بشير شيحاني" [22].

ثالثا: إجتماع الزاوية [23] قرب تابقردة 15سبتمبر1955 : حضر الإجتماع "بشير شيحاني وعمار بن بولعيد وعجول عجول وعباس لغرور ولزهر شريط والجيلالي بن عمر والزين عباد (المدعو قرنوف) وفرحي ساعي وعمر البوقصي"، وتقرر فيه الدعوة إلى عقد اجتماع شامل تحضره قيادة المنطقة الأولى ، وسكان قرى ومداشر بما فيهم الأعيان، للتصدي للحصار المفروض على وحدات جيش التحرير الوطني بالمنطقة [24] ، وإعادة هيكلة النواحي التابعة للمنطقة الأولى كما يلي:

- "البشير ورتان المدعو سيدي حني" مسؤولا عن ناحية تبسة .
- "حمة بن عثمان" مسؤولا عن ناحية تازبنت الى غرب الونزة.
- "الجيلالي بن عمر" مسؤولا عن ناحية نقرين والجنوب التونسي.
- "لزهر شريط" مسؤولا عن ناحية الجبل الأبيض وبئر العاتر.
- "عمر البوقصي" مسؤولا عن ناحية سدراتة.
-"علي كربادو" مسؤولا عن ناحية شرشار.
- "التيجاني عثماني" مسؤولا عن ناحية خنشلة .
-"الوردي القتال " مسؤولا عن ناحية سوق اهراس.
- "عباس لغرور" مسؤولا عن ناحية لخروب وعين الفكرون [25].

إن هذه النشاطات السياسية ،جعلت السلطات الاستعمارية تدرج ناحية تبسة ضمن المناطق الأربعة التي فرض عليها قانون الطوارئ في 03افريل1955 لخنق الثورة ، وجلبت فرقا من المضليين وجنودا متخصصين في حرب الجبال والحصار، ومنع أي شكل من أشكال الاتصال بالخارج عبر الحدود، لجلب السلاح أو التعريف بالقضية الجزائرية [26] .

رابعا: اجتماع رأس الطرفة[27] 15-20سبتمبر1955 : حضر هذا الاجتماع حوالي خمسمائة وافد، ومعظم قادة المنطقة الأولى [28] وألقى فيه "بشير شيحاني" خطابا ،أكد فيه على دعم الثورة ماديا [29]، وبشر بعرض القضية الجزائرية على الجمعية العامة للأمم المتحدة ،كماعدد مناقب سكان منطقة تبسة ،ونوه بها وبجيش التحرير في المنطقة.

ومما جاء في خطابه أيضا: "لا حياة لمن لا يدافع عن وطنه ...الجزائر ملك الشعب الجزائري ، وليس لفرنسا فيها شبر واحد " [30].

غير أن سلطات الاستعمار علمت بمكان الاجتماع ووجهت قواتها عبر مركز الشريعة وبئر العاتر وخنشلة نحو المنطقة ، وفرضت حصارا خانقا على المجاهدين ، بنية القضاء عليهم، مما أدى إلى إنسحاب المجتمعين نحو الجنوب والتحصن بالجبل الأبيض بجبال الجرف [31] .

وفي صبيحة يوم 21سبتمبر1955 أرسل القائد "بشير شيحاني" دورية عسكرية بقيادة "فارسي محمد بن عجرود" ،لاعتراض قوات العدو القادمة من الشريعة ،واشتبكت معها في المنطقة المسماة "فرطوطة" شمال الجرف قرب جبل أرقو ، وانتهت باستشهاد دورية "فارسي محمد" "[32].

تشاور القائد "بشير شيحاني" مع مقربيه ، وقرر مواجهة العدو والتمركز بالقلعة وتقسيمها إلى قطاعات دفاعية ،خاصة بعد شروع قوات العدو الزحف على مقر القيادة بوادي هلال صبيحة يوم 22سبتمبر1955،لتبدأ فصول معركة الجرف[33].

5- الإستعدادات الفرنسية للمعركة : حشدت فرنسا جيوشها في عملية مسح شاملة لتطهير المنطقة على محيط قارب ثلاثمائة كيلومتر خلال عدة أيام؛ فقد استعملت القوات الجوية(الطائرات المقنبلة،العمودية والاستطلاعية) وقنابل الطائرات والقنابل الحارقة(النابالم ، الفوسفور) وأنواع من المدافع (بعيدة المدى عيار 155 ملم ، والهاون...) والرشاشات المتوسطة والثقيلة ، والدبابات ووحدات المشاة (جنود الاحتياط ،المجندين الأفارقة ،التونسيين والمغاربة وقوات اللفيف الأجنبي) ، إضافة إلى الحملة الدعائية الإعلامية خلال فترة المعركة.

إن كثافة العمل المسلح الثوري في المنطقة الأولى، قد أقنع القيادة الفرنسية للزج بمعظم قواتها العسكرية الموجودة بالجزائر في اتجاه المنطقة الأولى؛ فقد أحصت المصالح الفرنسية قواتها المنتشرة بالمنطقة حتى جويلية 1955 كما يلي:

-أربعة كتائب وطابور مغربي تمركزت في أريس.

- ستة كتائب وطابور مغربي انتشرت في خنشلة.

- كتيبة واحدة وطابور مغربي ومجموعة صحراوية جنوب بسكرة .

- ثلاثة طوابير مغربية وكتيبتان متنقلتان من اللفيف الأجنبي انتشروا في تبسة.

- كتيبتان إثنتان وست سرايا انتشروا في باتنة.

فضلا عن القوات الخاصة والدرك والقوات المساعدة والخونة (دفاع ذاتي،حركة).وبلغ عدد القوات الفرنسية أربعين ألف مقاتل. كما تدعمت الإستراتيجية الفرنسية بقوانين رادعة، مثل قانون الطوارئ والتهجير الذي اعتمده البرلمان الفرنسي في03أفريل 1955[34]، ليطبق في المنطقتين الأولى والثانية بقيادة الجنرال (بارلانج-Parlange)[35].

6- سير المعركة : بعد استكمال تطويق قوات الجيش الفرنسي لمنطقة الجرف ، واستشهاد القائد "فارسي محمد بن عجرود" [36]. أرسل القائد "بشير شيحاني" ، "عباد الزين" رفقة مجموعة من المجاهدين لا تزيد عن خمسين جنديا لإيجاد منفذ للخروج من الجرف ، لكنهم اشتبكوا مع قوات العدو ، لذلك تأكد القائد "بشير شيحاني" ضرورة الاصطدام.

- **اليوم الأول للمعركة 22سبتمبر1955 :** عند صلاة الصبح ليوم22سبتمبر1955،سمعت أصوات محركات آليات ثقيلة ودبابات تملأ محيط الجرف مدعمة بقوات مختلفة . وفي حدود الثامنة صباحا، حلقت طائرات الاستطلاع في سماء الجرف ، وألقت قنابل دخانية لإرغام المجاهدين على مغادرة مخابئهم لاقتناصهم[37] ، اتبعتها طلقات مدفعية تسببت في تطاير مواشي السكان وأغنامهم مع شظايا القنابل، واستشهد فورا ستة من السكان . و تجدد قصف القلعة جوا حوالي الساعة التاسعة صباحا، لتبدأ المعركة على الأرض بين دبابات الجيش الفرنسي وبين المجاهدين الذين قارب عددهم ثلاثمائة مجاهد [38]، منذ الساعة العاشرة صباحا من نواحي الشمال والغرب والشرق.

وبعد هدوء نسبي ظُهر اليوم الأول ، تجدد القصف لاستطلاع مواقع المجاهدين الذين ردوا بكثافة أكثر ،ولم تتوقف المعركة إلا بعد الغروب، حيث تراجعت القوات الفرنسية واتخذت وضعا للمبيت، واستمرت في إضاءة أرض المعركة وإطلاق الرصاص عشوائيا، وبدورهم استغل المجاهدون تلك الليلة للتزود باحتياجاتهم المختلفة وتبادل الأخبار.

- **اليوم الثاني للمعركة 1955/09/23 :** عند بزوغ شمس اليوم الموالي ، شرعت المدفعية في قصف تمهيدي ، أعقبه قنبلة الطيران للقلعة ، مما أجبر المجاهدين على الإحتماء بالمغارات والكهوف.

وفي حدود التاسعة والنصف ، اشتد القتال حتى منتصف النهار بين مشاة العدو والمجاهدين، واستشهد من هؤلاء عشرة وجرح ثمانية ، واضطر العدو إلى التقهقر، ثم تجدد الاصطدام مساءا.

- **اليوم الثالث للمعركة 1955/09/24 :** وفي صبيحة اليوم الثالث ، تدعمت قوات فرنسا بأفراد اللفيف الأجنبي ،وشرعت في الهجوم من جميع جهات القلعة ، حيث كانت الدبابات والعربات في الأمام، ومن خلفها قوات اللفيف الأجنبي الراجلة ،مدعمة بمدافع الهاون ومدافع الرمي المباشر والرشاشات المختلفة.

لاحظ المجاهدون أن القوات الفرنسية قررت اقتحام القلعة، إذ تمكنت بعض الدبابات من احتلال بعض المواقع، وصارت تشكل خطرا على بعض المجاهدين المتمركزين لمواجهتها ، مما جعل القائد "بشير شيحاني" يعقد اجتماعا عاجلا مع نائبيه ، ويأمر بالخروج مساءا من أرض المعركة. ثم تواصلت المعركة طوال النهار، واستشهد عشرون مجاهدا، وجرح حوالي خمسة عشر آخرا.

وعند العصر، وصلت قوات اللفيف الأجنبي إلى مواقع المجاهدين - التي استشهد أصحابها- واستخدمت القنابل اليدوية داخل القلعة واستمرت المعركة حتى الليل ،وفقد المجاهدون فيها عددا من الشهداء .

- ليلة الخروج : في حدود الساعة التاسعة ليلا، خرج المجاهدون أفواجا وجماعات من البوابة الجنوبية[39]، فاصطدموا بفيلق من الخيالة المغاربة وكان الإصطدام دمويا ولأول مرة يستخدم السلاح الأبيض إلى جانب الرصاص .

وعند فجر يوم 1955/09/25، تسابقت قوات الجيش الاستعماري نحو وسط أرض المعركة ، وأعدموا الشهيد "بخوش محمد بن الصدراتي" ، ثم طاردوا المجاهدين وارتكبوا مجازر جماعية بشعة ، وأحرقوا المنازل[40]، بمن فيها ، وجردوا النساء من حليهن ،وصادروا المواشي والأرزاق، واقتادوا الرجال إلى مراكز التعذيب والإستنطاق ، ومنها مركز الجرف [41]، أما عن مصير القائد "بشير شيحاني" ورفقائه الستة وهم("علي لمعافي،زديرة عبد العزيز،محمد الشابي، بوساحة عون الله،عبد الحميد الولجي ومحمد الصغير")[42]، فقد ظلوا في الكهوف لمدة ستة ليال وسبعة أيام[43]، ثم انصرفوا إلى بيت منعزل بالمنطقة.

7-نتائج المعركة : من الصعوبة بمكان تقدير خسائر الطرفين ،لأن الجيش الفرنسي أقام أثناء المعركة مراكز بالجرف لمعالجة أفراده، وحتى سكان وادي الجرف "الجرافة "غادروا المنطقة بعد تعرضهم للقصف، وعليه تضاربت أرقام خسائر الطرفين . وعموما فقد كانت خسائر جيش الإحتلال كالتالي: مابين 400-800 قتيل وأكثر من1500 جريح ،فقدان 100 جندي،إسقاط ثماني طائرات وتدمير ثلاث مصفحات[44]، فضلا عن ضياع كميات كبيرة من الذخيرة وحوالي150قطعة أسلحة كالبنادق الآلية (50بندقية) وغيرها[45].

أما عن تضحيات جيش التحرير الوطني، فقد تباينت التقديرات، وعموما فهي ما بين60-70 شهيد و60-90 جريح ،وضياع 15 قطعة سلاح ، تعذر الاحتفاظ بها ليلة الخروج وهي على متن قافلة للبغال.

هذا وقد أحرق الجيش الفرنسي عشرات القرى[46] والمداشر وقتل الأهالي من نساء وأطفال وشيوخ ،وصادر حلي النساء فضلا عن المواشي والمؤن ،وأقام مراكز التعذيب والمراقبة ؛ ففي منطقة تبسة كانت فرنسا قد أنشأت منذ

اندلاع الثورة حتى مطلع الستينات ، ثمانية مراكز للتعذيب،وإحدى عشر مركزا للمراقبة وثمانية عشر مكانا للقتل الجماعي ، وثمانية محتشدات واثنين وخمسين ثكنة[47].

8- أصداء المعركة : كان لمعركة الجرف،أصداء هامة على عدة مستويات ؛ فعلى المستوى المحلي أزالت الحاجز النفسي عند المجاهدين الجزائريين، فصاروا لا يهابون العدو مهما بلغت قوته، ورفعت الروح المعنوية لدى السكان في المنطقة الذين تسابق شبابهم على قمم الجبال تطوعا للجهاد .

ورغم أن الثورة كانت في بدايتها وبإمكانيات محدودة ،إلا أن هذه المعركة أكدت عدالة القضية الوطنية ، واستماتة الشعب في الدفاع عن الحق ، رغم عدم تكافؤ موازين القوى بين الطرفين ،وهي التي لخصها البطل الشهيد "العربي بن مهيدي" لمحاكميه قبل إعدامه فقال عنها "قد أعطيناكم في الجرف درسا لا ينسى" [48].

إن معركة الجرف كانت جهدا عظيما قام به مجاهدو المنطقة الأولى في مواجهة الإستراتيجية الاستعمارية، وحققوا انتصارات سياسية وعسكرية ودعائية وذلك بفضل تضحياتهم ،والتفاف الشعب حولهم وألهمت الشعراء الجزائريين ومنهم الشيخ "محمد الشبوكي" فقال:

سلوا جبل الجر ف عن جيشنا يخبركم عن مدى جأشنا

ويعلمكم عن مدى بطشنا بجيش الزعافة الآثمين[49]

إن معركة الجرف وقبلها هجومات 1955/08/20،قد حسمت الموقف لصالح جيش التحرير وأفشلت إستراتيجية القائد "سوستال" السياسية، وقضت على أحلامه في فصل الشعب عن الثورة، بل أقنعت الجزائريين على توسيع الثورة في الغرب الجزائري بدليل هجومات 1955/10/31 [50].

نتيجة لصدى وأهمية معركة الجرف ، فقد درست هذه المعركة في كلية "سان سير"،وخاصة الطبوغرافيا وكيفية مواجهة ذلك برا وجوا مستقبلا[51].

إن فرنسا لم تخسر في الجرف المعدات العسكرية ومئات القتلى فقط ، بل خسرت أيضا الروح المعنوية والقتالية.

إن استخدام فرنسا للغازات السامة المحظورة دوليا، وقنابل النبالم، سبب لها انهزاما سياسيا؛ حيث ارتفعت أصوات منددة بتلك التجاوزات اللامسؤولة ؛ فقد قدم نواب البرلمان الفرنسي استقالتهم، احتجاجا على دولتهم التي ترفع شعار " الحرية ،الأخوة ،المساواة" ولا تطبقها على أرض الواقع.

لقد أثرت المعركة أيضا على الطبقة البرجوازية الجزائرية ، حيث أسس الدكتور "محمد صالح بن جلول" كتلة الواحد والستين(61) نائبا جزائريا في المجلس الجزائري في 26سبتمبر1955تحت رئاسته[52]، حيث صارت هذه الهيئة تعارض سياسة الإدماج وتجاوب معها المنتخبون في جميع المجالس ، حيث بدأت الإستقالات الفردية والجماعية تتوارد على الإدارة الاستعمارية ؛ فقدم يوم30ديسمبر1955كلا من الدكتور "علي القاضي ،آيت اعمر وشعلال ، صالح أرزور" استقالتهم[53]. وتعتبر هذه الاستقالات نصرة للفكرة الوطنية الجزائرية[54].

ورغم ضخامة عدد القوات الفرنسية التي زحفت على المنطقة (أكثر من 45ألف عسكري من مختلف الرتب والأسلحة) ، وقوات وأسلحة الحلف الأطلسي[55]، إلا أنها خرجت ،وهي تجر أذيال الخيبة.

أما على المستوى الديبلوماسي ،فقد عجلت معركة الجرف بتسجيل القضية الجزائرية في جدول أعمال الدورة العاشرة لهيئة الأمم المتحدة يوم 20سبتمبر1955 بعد طلب قدمته خمسة عشر بلدا من كتلة باندونغ ؛ فبعد مداولات 27-30 سبتمبر1955 ،سجلت القضية بأغلبية صوت واحد[56]، واكتفى الوفد الفرنسي لدى الأمم المتحدة بالانسحاب ،بينما في الجزائر، صرح "سوستال" قائلا:"إن ما وقع في نيويورك أثمن من قافلة أسلحة إلى جبهة التحرير[57].

-الخاتمة

لقد ظل أوراس النمامشة صامدا أمام قوات الجيش الفرنسي ومساندا لجيش التحرير الوطني، بدليل تجدد المعارك على وادي الجرف مثل معركة الجرف الثانية في 06أفريل 1956 ، والتي خرج منها جيش التحرير منتصرا، بقتل حوالي 374جنديا فرنسيا ،وجرح عدة مئات آخرين وتحطيم عدد من الطائرات، وغنم الكثير من الرشاشات والقنابل والمدافع والعتاد وعدد من أجهزة الإرسال.

ونتيجة لذلك فرضت فرنسا المزيد من المراقبة و شددت الخناق والعقوبات الجماعية، لكن ذلك لم يثن مجاهدي جيش التحرير، للمضي قدما لتحرير كل شبر من التراب الوطني. إن معركة الجرف ولدت من رحم ثورة أول نوفمبر1954 وتعد ملحمة إنسانية وانجازا ثوريا عظيما، في ظل عدم توازن القوى بين ثلة مؤمنة بحقها وبحق شعبها في الحياة والكرامة ، وبين جحافل الإستعمار المسلحة بأفتك وسائل الإبادة والدمار. إن معركة الجرف ، إمتحان عسير ونقطة تحول إستراتيجية في مسار الثورة ،حيث سفهت أحلام الإستعمار وكسرت غروره . جاءت معركة الجرف بعد حدثين عسكريين بارزين هما اندلاع ثورة أول نوفمبر1954، وهجومات 20أوت 1955 ،ولم يكن المجاهدون على استعداد مادي ولا على قوة عددية كبيرة ، بل استعانوا بخبرتهم المتواضعة المكتسبة من مشاركاتهم الحربية السابقة. تبرز أهمية معركة الجرف أيضا من حيث المساحة المحدودة للمعركة التي حاصرتها قوات الجيش الفرنسي - وهي مدججة بجميع أنواع الأسلحة- طيلة أسبوع ، ورغم ذلك فشلت كافة خططه في إختراق الخنادق والتحصينات الطبيعية مع قلة المؤونة والعدد . جاءت هذه المعركة في إطار إستراتيجيتين متناقضتين ؛ ففرنسا منذ1954 حاولت مجابهة الثوار بالقوة ومحاصرتهم في أوراس النمامشة ووصفهم بالخارجين عن القانون،وعزلهم عن الشعب الجزائري واعتماد سياسة الإصلاحات .وفي المقابل كان على الثوار إفشال تلك الإستراتيجية . إن هذه المعركة كشفت عن أروع مظاهر النبوغ الثوري لدى الجزائريين قيادة وجنودا؛ فبعد نفاذ الذخيرة والمئونة على المجاهدين ، قررت قيادتهم فك الحصار ليلا ، لإرهاب جيش الإحتلال. كما يظهر حلم القيادة حين آثرت خروج الجنود من القلعة وبقي القادة سبعة أيام داخلها.

شكلت معركة الجرف مرحلة متقدمة في أبعادها ونتائجها ؛ فبقدر ما عصفت بأحلام المحتلين الفرنسيين وعجلت باحتضان الشعب لثورته، بقدر ما جعلت الضمير العالمي أمام مسؤولياته إزاء ما يحدث في الجزائر.

إن ملحمة الجرف دعمت التضامن الأخوي مع الأشقاء المغاربة والتونسيين الذين كانت ساحتهم تشهد قمة تصاعد المد التحرري .

- الإحالات والمراجع :

[1] جمال قندل ،خطا موريس وشال وتأثيراتهما على الثورة التحريرية 1957-1962 ، الجزائر ،2008 ،ص34.

[2] محمد العيد مطمر ، ثورة نوفمبر في الجزائر54(1954-1962)،(أوراس- النمامشة) أو فاتحة النار،دار الهدى ،عين مليلة ،الجزائر،(د-ت)،ص15.

[3] مصطفى طلاس ،بسام العسلي،الثورة الجزائرية، دار الشورى ، بيروت،1982،ص282.

[4] Mohamed Larbi Madaci, Les Tamiseurs du Sable, Aurès –Nmemcha,1945-1954, Anep ,Rouiba, Algérie, 2001,p116.

[5] إبراهيم قاسمي ،"**الجرف ام المعارك**"،اعمال الملتقى الدولي حول معركة الجرف،27_28أكتوبر 2007، منشورات وزارة المجاهدين،(د- م) ،2008،ص34.

[6] الرائد عمار ملاح ، مذكرات ، وقائع وحقائق عن الثورة التحريرية بالأوراس ، دار الهدى ،عين مليلة ،2003، ص106.

[7] محمد العيد مطمر، المرجع السابق، ص74.

[8] بن يوسف بن خدة ،جذور اول نوفمبر 1954،ترجمة مسعود حاج مسعود، دار هومة ، الجزائر،2010، ص196.

[9] شيحاني بشير: ولد يوم 22 أفريل 1929 بالخروب قسنطينة من عائلة ميسورة ، التحق بالمدرسة الأهلية في مسقط رأسه و كان يتعلم مبادئ اللغة العربية و يحفظ القرآن في زاوية سيدي حميدة. بدأ نشاطه الثوري أثناء دراسته الإكمالية بالانضمام إلى خلية الإكمالية التابعة لحركة انتصار الحريات الديمقراطية ضمن خلية استعلام . اتخذا ثكنة تلاغمة كغطاء لنشاطه.وفي 1953 عين على رأس دائرة باتنة باسم سي مسعود، الملقب بالشيخ وهو ما مكنه أن يصبح من مقربي مصطفى بن بولعيد ، عيّن نائبا لبن بولعيد في قيادة المنطقة الأولى (الأوراس) فرافقه في جميع جولاته التنظيمية والتفقدية ، وفي التحضير وتفجير الثورة المسلحة ، وقيادة العمليات في فترة غيابه واعتقاله. وفي 20 أكتوبر 1955 جمع شيحاني مساعديه بالقلعة مقر قيادة المنطقة لتقييم الموقف بعد معركة الجرف ، اعتقل في 22 أكتوبر1955 وحوكم وأعدم بتاريخ 23 أكتوبر 1955 .

علي العياشي،"**الشهيد شيحاني بشير** "، مجلة أول نوفمبر،ع81،جمادى الثانية1407ه/جانفي1987، ص ص26-37

[10]محمد العيد مطمر ، المرجع السابق ، ص126.

[11] إبراهيم بلقاسمي ،" **الجرف أم المعارك** "، الملتقى الدولي ل"معركة الجرف"، المركز الجامعي تبسة، 27/28-2007/10، ص ص34-35

[12] يطلق جغرافيا على المنطقة المحصورة بين باتنة وخنشلة شمالا وزريبة الوادي شرقا ، وبسكرة جنوبا ، وباتنة غربا . وأثناء الثورة التحريرية 1954-1962، يطلق على الولاية الاولى التاريخية (اوراس –النمامشة) .

محمد العيد مطمر،المرجع السابق، ص11.

[13] يوسف مناصرية ،" **معركة الجرف بين استراتيجيتين** "، أعمال الملتقى الدولي حول معركة الجرف ، المركز الجامعي العربي التبسي-تبسة ، يومي 27- 28أكتوبر2007، ص62.

الرائد عمار ملاح ، المصدر السابق، ص110. [14]

محمد زروال ، النمامشة في الثورة ، دار هومة الجزائر،2003، ص ص54-57. [15]

[16] في 1955/02/11 ألقي القبض على مصطفى بن بولعيد ، وهو يعبر الحدود الجزائرية التونسية ، وحوكم ثم اقتيد إلى سجن الكدية بقسنطينة.

[17] فريد نصر الله ،**التطورات السياسية والعسكرية بالناحية الشرقية للمنطقة الأولى (الأوراس) بين 1954-1955**، الملتقى الدولي حول"معركة الجرف"، المركز الجامعي تبسة، 27/ 28اكتوبر2007، ص ص106-107.

[18] جمعية الجبل الأبيض لتخليد مآثر الثورة ،الملتقى الوطني الأول حول، **دور المناطق الحدودية** ، 1996، ص37.

محمد زروال ، المرجع السابق ، ص125. [19]

فريد نصر الله ،المرجع السابق، ص109. [20]

[21] عبد السلام بوشارب، تبسة معالم ومآثر،المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار،الروبية،الجزائر،1996، ص 60.

محمد زروال ، المرجع السابق ، ص 128 . [22]

[23] تقع الزاوية في جبال تبسة بالقلعة بين تبارقدة ووادي الجديدة ، نقلا عن عبد السلام بوشارب ، نفس المرجع ، ص 53.

الطاهر الزبيري، مذكرات آخر قادة الأوراس التاريخيين (1929-1962) ،(م وك)،(د-م)،2008، ص126. [24]

فريد نصر الله ، المرجع السابق ، ص ص110-111. [25]

محمد العيد مطمر ،المرجع السابق،ص 122. [26]

[27] منطقة جبلية تقع بين جبل الجرف وجبل أرقو شمالا وسط جبال النمامشة، تنمو بها أشجار تعرف بالطرفة، اختيرت لحصانتها.

حضر هذا الاجتماع حوالي خمسمائة وافد، ومعظم قادة المنطقة الأولى. [28]

Mohamed Larbi Madaci , Op Cit , p113. [29]

[30] محمد عباس ، فرسان الحرية شهادات حية ، دار هومة ، الجزائر ،2001،ص ص191-192. وانظر كذلك :

مجلة الجيش ، عدد388 ، نوفمبر 1995،ص 38.

الطاهر الزبيري، المصدر السابق، ص126.[31]

[32] فريد نصرالله ، التطورات العسكرية بالناحية الشرقية للمنطقة الأولى (الأوراس) بين 1954-1955،أعمال الملتقى الدولي معركة الجرف ، ص112.

محمد العيد مطمر ،المرجع السابق ، ص138.[33]

[34] يوسف مناصرية ، "**معركة الجرف بين إستراتيجيتين** " الملتقى الدولي ل"معركة الجرف،المرجع السابق ،ص ص59 -60.

كان تعيينه على رأس القيادة الموحدة للعمليات العسكرية والمدنية في الأوراس ،على خلفية شهرته في المغرب الأقصى بإقليم أغادير.

[35] خالد نزار ،الجزائر(1962،1954) يوميات الحرب، ترجمة، سعيد اللحام، دار الفارابي ، بيروت ، دون تاريخ، ص39.

[36] نكلت قوات العدو بجثمان الشهيد فارسي محمد بن عجرود، ففصلت رأسه ووضعته على سيارة عسكرية مكشوفة (جيب) وجابت به الشوارع.

[37] أحسن بومالي ، إستراتيجية الثورة الجزائرية في مرحلتها الأولى 1954-1962،منشورات المتحف الوطني للمجاهد،الجزائر،(د-ت)، ص71.

[38] محمد العيد مطمر ، المرجع السابق، ص139.

[39] نفسه ، ص ص140-141.

[40] جمال قندل ، المرجع السابق، ص34.

[41] للمزيد عن تفاصيل المعركة ، انظر :

Mohamed Larbi Madaci,Les Tamiseurs de Sable ,Aurès Nmemcha ,1954-1962;Edition ANEP,Rouiba.Algèrie.2001,pp 116-126.

[42] عبد السلام بوشارب ،المرجع السابق ،ص 58.

[43] نور الدين خلادي ، الملتقى الوطني الثاني لتاريخ الثورة ، حزب جبهة التحرير الوطني ، المنظمة الوطنية للمجاهدين،قصر الأمم الجزائر،الجزء الثاني،المجلد الثالث ،1984، ص79.

[44] مصطفى طلاس بسام العسلي، المرجع السابق، ص252.

[45] شريط لخضر وغيره، إستراتيجية العدو الفرنسي لتصفية الثورة الجزائرية، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر1954، وزارة المجاهدين، الجزائر، 2007، ص263.

[46] جمال قندل ، المرجع السابق ، ص 34 .

[47] إبراهيم قاسمي، المرجع السابق، ص 37.

[48] عبد السلام بوشارب ، المرجع نفسه ، ص 52.

[49] غنام عبد الحميد، الملتقى الوطني الثاني لتاريخ الثورة، حزب جبهة التحرير الوطني، المنظمة الوطنية للمجاهدين، ،الجزء الثاني، المجلد الثالث ،قصر الأمم، الجزائر ،1984، ص67.

[50] يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين ،الجزء الثاني ،ط2 ،منشورات المتحف الوطني للمجاهد ، الجزائر 1996 ، ص147.

[51] يوسف مناصرية ، المرجع السابق، ص ص70-71.

[52] حميد عبد القادر،فرحات عباس رجل الجمهورية ،دار المعرفة ،باب الوادي الجزائر،2007، ص 156.

[53] أحسن بومالي ، إستراتيجية الثورة الجزائرية في مرحلتها الأولى 1954- 1956،منشورات المتحف الوطني للمجاهد ، الجزائر ، دون تاريخ،ص ص130-311.

[54] Mahfoud Kaddache , Et L'Algérie se libera 1954-1962,Edif, ,Birkhadem Alger,2003,p47 .

نقلا عن :

C .R.Agèron,"L'insurrection du 20 Aout 1955", La Guerre d'Algérie et les Algériens, pp45-46.

[55] محمد العيد مطمر،المرجع السابق، ص111.

[56] مبارك الميلي ، الحالة السياسية داخل الجزائر وخارجها ... ، الملتقى الوطني الثاني لتاريخ الثورة ، حزب جبهة التحرير الوطني ، المنظمة الوطنية للمجاهدين، قصر الأمم الجزائر، المجلد الثاني، الجزء الثاني،1984، ص31 .

[57] محمد العربي الزبيري ، انتفاضة 1955/08/20 ،الملتقى الوطني الثاني لتاريخ الثورة ...، ص69 .